بين الخيال الطليق وإبداع اللغة...

هذا كاتب لا يخضع لقواعد جامدة ولا يُذعن لقيود صارمة وهذه الرواية تعبِّر عن الخيال الطليق وإبداع اللغة... ومن هنا لم يكن من الغريب أن تتوَّج رواية «بند بابا» في عام 2021 بجائزة «ميديسيس» الفرنسية للرواية الأجنبية.

وفيما أبدى يونس حسن خميري سعادته لفوزه بهذه الجائزة الأدبية العريقة في فرنسا معتبراً أن تتويجه بالجائزة يمنحه فرصة الالتقاء بقرّاء جُدد باللغة الفرنسية، فها نحن بترجمة هذا العمل للعربية نتيح له الفرصة أيضاً ليلتقي بقرَّاء جدد باللغة العربية، كما ترجمنا له من قبل في دار المدى رواية «كل شيء أنا لا أتذكره».

وإذ يقول يونس حسن خميري المنحدر من أب تونسي الأصل وأم سويدية أنه نشأ في بيت يجمع بين السويدية والعربية والإنكليزية والفرنسية، لافتاً إلى أن «اللغات المتعددة ضاعفت قدرته على الابتكارات اللغوية وتنهض اللغة بدور محوري في رواياته» فإن روايته الجديدة «البند الأبوي» تحلِّق بعيداً بالفعل في مناطق جديدة، سواء على مستوى اللغة أو الخيال المضفور بالواقع المثير للسخرية، ناهيك عن التجريب المدهش حقاً والتجريد المثير لتأملات عميقة بما يشكّل إضافة حقيقية للمنجز الروائي العالمي، حتى إنك لن تجد اسماً لأي شخصية من الشخصيات الفاعلة في هذه الرواية!.. سنقرأ معاً «الأب الذي هو جد» و«الأب الذي هو ابن» و«الصديقة التي هي أم» و«الابنة التي هي أخت»!.

وإذا كانت هذه الرواية بأفكارها الأصيلة تتوغل في أبعاد الصراع الذي يكابده شاب سويدي من أب غير سويدي الأصل وأم سويدية، وسعيه للطعن

في سلطة والده المهاجر عليه وتجريده من أي حقوق مكتسبة، وتقدِّم نوعاً من «الدراما العائلية لأسرة تنتمي للطبقة الوسطى في ستوكهولم مع أجواء العلاقات بينها ونقلاتها الزمنية وتلاوين الحب والمسرات والقلق والغضب والإحباط والأحزان» فإنها تطرح أسئلة مستفزة للعقل مثل: «ما هي العلاقة الطبيعية؟!» ومعنى الحب وماهية العلاقات الأسرية والخلافات بين أفراد الأسرة في الغرب ما بعد الحداثي، الذي قد تلقي فيه المقادير بأناس آخرين يحمل كل منهم صفة «المهاجر»، وهي قضية محورية لمؤلف هذه الرواية الذي ولد عام 1978 في ستوكهولم لأب تونسي الأصل وأم سويدية وتوِّج بجائزة «أوغست» الأدبية المرموقة في السويد.

وصاحب «البند الأبوي» يؤكد في هذه الرواية قدرته الفريدة في اللعب باللغة والتصرف في نسجها، وإقامة جماليات الكتابة على آلياتها وتقنياتها، ورفض الخضوع للقواعد الجامدة والجماليات السائدة بقدر ما تشير لمعنى «الرؤية المصاحبة» وتعدد زوايا الرؤية والأصوات، حيث تتحدث كل الشخصيات من دون احتكار شخصية واحدة الحق في الحديث على حساب الشخصيات الأخرى حتى لو كانت لطفل عمره عام واحد، بل وحتى لشخصية رحلت عن هذه الحياة الدنيا.

ولأنه صاحب شكل سردي مغاير ستجده يستخدم ضمير الغائب في هذه الرواية بطريقة تخدم رؤيته في تعبير كل شخصية عن نفسها من دون وصاية من شخصية أخرى وإمكانية تعدّد التفسيرات، ومن هنا يكثر استخدامه للضمير «هو» أو «هي»، لتكون كل شخصياته الفاعلة ساردة، وقد تتحول بسلاسة لاستخدام ضمير المتكلم والمناجاة أو المونولوج في سردانية «بند بابا وحاضرها الحكائي وعلاقاتها الإنسانية التي تجمع ضمن ثنائيات متعددة بين المأساة والملهاة، وبمنظور لا يعرف الأحادية ولا ينبغي له أن يعرفها في عالم معقَّد للغاية، ويستدعي في قسوته لغة عارية من الزركشة ومحاولات مداراة القبح بالجمال المزيف».

ولم يختلف يونس حسن خميري مع هؤلاء الذين ذهبوا إلى أن «الرواية هي فن الزمن» وها هو في روايته «البند الأبوي» يمضي تحت عناوين الأيام المتوالية، وكأنه يتفق مع من يقول إن الزمن هو وجودنا نفسه، فيما يسري فعله

السردي بالحياة في ساعات ودقائق وثواني تلك الأيام بالكلام والضحك والبكاء والصراخ والصمت وقصف الرعد وتراكم الثلوج ودمدمة الرياح وإشراقة الشمس، وبحثه الدؤوب في كثير من التفاصيل الأخرى والحركات والزوايا والروائح والمأكولات.

وإذا كان يونس خميري في تلك الرواية الجديدة قد جعل «الأب الذي هو جد» من هؤلاء المهاجرين للسويد بينما الأم سويدية الأصل، فتلك علاقة حاضرة في أغلب أعماله بصيغ ومعالجات مختلفة ليكون بحق من أهم الأصوات الأدبية في السويد وأوروبا ككل، التي تتناول إبداعياً إشكاليات الهوية والتباينات الثقافية والمواطنة لهؤلاء الذين وفدوا من بلدان أخرى.

فمن يتأمل أعمال يونس حسن خميري سيدرك مدى أصالة اهتمامه بقضايا المهاجرين وإشكاليات اللاجئين منذ روايته الأولى «عين حمراء» التي صدرت عام 2003 وكان حينئذ في الخامسة والعشرين من عمره وتحوَّلت إلى فيلم سينمائي. ومن المفارقات الدالة أن هذا المبدع الذي يجري دوماً تذكير من هو مثله «بأنه لا يبدو سويدياً» وصف مراراً في سياق تتويجه بجوائز أدبية سويدية بأنه قدم إسهامات جليلة للغة السويدية، لما تتمتع به إبداعاته من بريق لغوي وقدرة على إظهار الطاقة الخلّاقة للغة السويدية، وعندما منحته الإذاعة هناك جائزتها الأدبية «رومان بريس» عن روايته «مونتي كور» وصفته في حيثيات الجائزة بأنه «مهندس لغة جديدة يترك لمسته على كل مفردة في الرواية وأبطالها وأحداثها بشكل يظهر السويد كبلد ومجتمع متنوع وفريد من نوعه ومنسجم مع نفسه».

وفي رواية «البند الأبوي» يحق وصف خميري بأنه «صاحب لغة ساخرة وكاشفة لجوهر العلاقات بين أفراد أسرة واحدة وفاضحة لنظرة كل منهم للآخرين، وسوء الفهم المسموم والدوافع الخفية التي تشكل مساراتها الغريبة في الحياة وتصنع الفجوة المثيرة للسخرية بين الحياة الفعلية والحياة المعلنة»، وكأنه يقدم مرثية لكل منهم من دون أن يقع في فخ المباشرة أو يهن قلبه الطواف من التطواف بين الوعي واللاوعي... بين الشك واليقين... بين المعلن والمسكوت عنه... بين اللغة الجوانية واللغة البرانية... رواية جديدة تثبت أن الفن الروائي حافل بالإمكانات وكتابة جديدة تدخل في سيرة

الاقتدار الإبداعي وإشارة دالة على مدى التطور المذهل في بنية الرواية في عصرنا هذا الذي لا يمكن أبداً القول إن كل شيء فيه على ما يرام... إنما لن نتخلى عن التفاؤل طالما أن الخيال طليق والإبداع بلا حدود كما يتجلى في هذه الرواية.

حسام إبراهيم

مع الليل تحالفت وأوثقت الميثاق، عشرون سنة مضت على هذا الميثاق وأنا أشعر بالليل حانياً يهدهدني بعذوبة...

إيميه سيزار، «...والكلاب كانت صامتة».

اسأل أماً تكون قد فقدت طفلاً لتوها، كم ابناً لديك؟ ستقول «أربعة» ثم تستدرك وتقول «ثلاثة»، وبعد سنوات عـدة، ستقول «ثلاثة» ثم تستدرك وتقول «أربعة».

إيمي هيمبل، «القصص المختارة».

– I –

الأربعاء

يعود الجد الأب إلى البلد الذي لم يغادره أبداً. إنه يقف في الصف انتظاراً لإجراءات تدقيق جواز السفر. لو أن الضابط الرابض خلف الحاجز الزجاجي عنَّ له أن يسأل أي أسئلة مريبة، فإن الأب الجد سيتجمل برباطة الجأش. لن ينعت الضابط بأنه خنزير. لن يسأل إذا ما كان الضابط قد اشترى لباسه الرسمي من كتالوج للطلب بالبريد. بدلاً من ذلك، هو سيبتسم ويظهر جواز سفره ويعيد لذاكرة الضابط بأنه مواطن في هذا البلد وأنه لم يغادره أبداً لأكثر من ستة أشهر. لماذا؟ لأن أسرته تعيش هنا. أبناؤه الأعزاء. أحفاده الرائعون. زوجته السابقة المخيبة للآمال. أبداً ليس له أن يذهب بعيداً لمدة أطول من ستة أشهر. الحد الأقصى ستة أشهر. هو عادة يقيم في الخارج لخمسة أشهر وثلاثين يوماً. أحياناً لخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوماً.

تقدم الطابور، للجد الأب ابنان. لا بل ثلاثة. ابن واحد. ابنة واحدة. هو يحبهما معاً. الابنة على وجه الخصوص. الناس يقولون إنهما يشبهان والدهما، غير أنه قلما يتيسر له أن يلمح أي تشابه. هما أخذا من أمهما طول القامة، عناد أمهما، أنف أمهما. هما في الواقع سواء كمجرد صغيرين، أو إنْ صح القول بأنهما كبرا، ليسا إلا نسختين من أمهما، الاثنان معاً. الابن على وجه الخصوص. الابن يكاد يشبه أمه تماماً لحد أن الأب الذي هو جد أحياناً، بل في أغلب الأحيان في الواقع، يشعر كما لو أنه يهمّ لينطحه برأسه. أبداً ليس ذلك ما يفعله. قطعاً ليس هو بالذي يفعلها. هو يكبح جماح نفسه كاظماً غيظه. هو عاش في هذا البلد ما يكفي لمعرفة الثمن الفادح لإظهار

المشاعر وأي خسارة جسيمة يمكن أن يتكبدها من يخاطر بكشف ما يعتمل في خبيئة باطنه. إنما المشاعر ينبغي للذهن أن يسجنها مضغوطة في حيِّز صغير، حبيسة في صناديق محكمة الغلق ومميزة تماماً بعلامات بارزة، ولا يجوز لك أبداً أن تطلق سراحها حتى تمتلك الدليل الإرشادي، حتى يتموضع الخبراء في مواضعهم الصحيحة، حتى يتسنى لمفتش رسمي من عمداء الرقابة أن يتحمل المسؤولية عما يمكن لتلك المشاعر أن تفعله.

الصف يراوح مكانه متوقفاً في سكون. لا أحد يبدو غاضباً. لا أحد يرفع صوته. لا أحد يدفع أي واحد آخر. لا يظهر الناس سوى أعين تجول في محاجرها وتنهدات. الجد يفعل الشيء ذاته ولا يحيد عما يفعلونه قيد أنملة. هو يتذكر عندما كان أباً. حفلات وإجازات على الشطآن، تدريبات الجودو وأنين البطن، دروس البيانو وعروض نهاية الموسم. هو يتذكر قفازات المطبخ التي صنعتها ابنته، أو ربما ابنه، قفازات لحمل الأواني الساخنة صُنعت ضمن أنشطة التدبير المنزلي، وكانت مطرّزة بتلك الكلمات: أفضل أب في العالم. كان أباً رائعاً. هو جد رائع. أي شخص يزعم غير ذلك هو كذاب أشر.

عندما يصل الأب الذي هو جد إلى كشك ضابط أمن الحدود، لن يتطلب الأمر أكثر من ثوانٍ معدودة حتى ترمقه ضابطة تجلس بزيها الرسمي على الجانب الآخر من الحاجز الزجاجي وتصوِّب نظرة في عينيه، تتصفح جواز سفره وتشير له بأن يذهب في حال سبيله.

***

يذهب الابن الأب إلى المكتب بمجرد أن يخلد الأبناء للنوم. يلتقط الخطابات البريدية بيد ويغلق باب المكتب باليد الأخرى. هو يحشو الثلاجة بالطعام ويرصّ المأكولات داخلها ويلقي بأطقم الملابس الرياضية في جوف خزانة للثياب. قبل أن يخرج المكنسة الكهربائية من مكمنها يجري بعض الجولات بمناديل المطبخ الورقية ويجمع بالمجرفة الصراصير الميتة خلال الأيام الأخيرة من المطبخ والحمام والمدخل. هو يغيِّر ملاءات السرير والمناشف، ويملأ المجلى بالماء حتى يتسنى لبقع القهوة المتيبسة

في الفناجين الشروع في مسح نفسها بنفسها وتنجلي معيدة للفناجين بياضها الناصع. يفتح باب البلكونة ويهوِّي الغرفة. ويملأ السلة في المطبخ بالكتيبات والمطويات الدعائية ووريقات الإعلانات، الكيوي المعطوب، حبات اليوسفي المتليفة، مظاريف ممزقة ولب تفاح بني. يتحقق من الوقت ويدرك أن عليه إنجاز ما ينبغي إنجازه. في الواقع ليس هناك ما يدعو لتعكير صفوه وحمله على العجلة. يمسح الأرضية بالمدخل والمطبخ، ينظف البانيو، البالوعة والمرحاض. بمجرد أن ينتهي، يترك الصابون والإسفنجة في الحمام. يقول لنفسه لو أن أباه لم ير سوى ذلك، فثمة فرصة عظيمة في ألّا يترك شقة المكتب على الحالة التي كانت عليها في المرة الأخيرة. والمرة قبل الأخيرة.

يفرغ الابن الكبسولات لماكينة قهوة الإسبيرسو داخل كيس بلاستيكي، ثم يضع هذا الكيس البلاستيك داخل صندوق ويخفي الصندوق في خلفية خزانة المؤن. إنه يضع الشموع التي قدمتها له شقيقته في عيد ميلاده داخل كيس آخر من البلاستيك، ويخبئ الكيس في صندوق الأدوات. معلبات التونة الغالية وخوابي الصنوبر والجوز وبذور اليقطين تذهب لصندوق حبر الطباعة الفارغ مستوياً بها على سطح البراد. يسكب فراطة النقود المعدنية من مزهرية صغيرة في المدخل يميل بها لتستقر قطع العملة الصغيرة داخل الجيب الأيمن لبنطاله الجينز. يخفي نظاراته الشمسية في حقيبة ظهره. إنه يقطع شوطه الأخير. ها هو قد أنجز وانتهى. الغرفة جاهزة لوصول والده. يتحقق من الوقت. بابا لا بدّ وأن يكون هنا الآن. سيكون هنا في أي لحظة.

***

الأب الذي هو جد يقف متحفزاً أمام ناقل الحقائب. كل حقائب السفر تبدو متشابهة لحدّ التطابق وكأنها النسخة ذاتها. إنها لامعة تومض ببريق كسفن الفضاء، مع عجلات كألواح التزلج. بمقدورك أن تعرف من دون عناء وأنت على بعد ميل أنها صُنعت في مصنع من مصانع المنتجات الرخيصة والمتدنية الجودة في آسيا. أما حقيبته هو فيا لها من حقيبة أصيلة متينة، صُنعت في أوروبا. إنها محتفظة بمتانتها على مدى أكثر من ثلاثين عاماً وصولاً إلى اللحظة الراهنة، وستبقى كما هي لعشرين سنة أخرى على

الأقل. لا تعرف أي عجلات قابلة للكسر. عليها ملصقات لشركة طيران أشهرت الآن إفلاسها. فيما يسحب حقيبته من الناقل المتحرك، شابة صغيرة بذراعي مصارع تسأله إن كان بحاجة لأي مساعدة. لا شكراً، الجد يقولها مع ابتسامة. هو ليس بحاجة لأي مساعدة. وعلى وجه الخصوص من الغرباء الذين لا يعرضون المساعدة إلا طمعاً بشيء من المال.

يرفع الحقيبة على العربة ويتدحرج صوب باب الخروج. ثمة خطأ تقني تعرضت له الطائرة. كان للركاب أن يصعدوا على متنها، ثم حُكم عليهم بالنزول فالصعود مرة أخرى. لا بدَّ وأن أولاده يرون التأخير على الإنترنت. يحضر الابن أخته في السيارة معه. ينطلقان شمال الأوتوستراد. يركن الابن السيارة في موقف السيارات بمنطقة انتظار المدى القصير برسومها الباهظة بصورة صادمة، والابنة تنتزع المعطف الأنيق لأبيها من حقيبة السيارة. في راهن اللحظة، لا بدَّ وأنهما ينتظران على الجانب الآخر. الابنة ببهاء ابتسامتها المبهرة. الابن بسماعات رأسه. هما ليسا بحاجة لأي هدايا. يكفي أنهما هنا.

***

الابن الذي هو أب له أن يفعل شيئاً ما ليشغل وقته وهو ينتظر وصول والده. بعد التيقن من عدم وجود أي صراصير نافقة في الغلاية، يغلي الماء ليحتسي كوب شاي. يفتح حاسوبه ويمرّ بعينيه عبر الحسابات الختامية السنوية لتعاونية أوتسيكتن الإسكانية رقم 9. إنه يسجل الدخول للبوابة الإلكترونية لمصلحة الضرائب ويلتمس تمديد مهلة المخالصة الضريبية لأحد زبائنه الذي يعمل قيماً وصحفياً مستقلاً. يكتب قائمة بأشياء يحتاج أن يفعلها قبل حفل ابنته الأحد المقبل، مثل أن يعيد تذكير الآباء الذين لم يردوا بعد على دعوات الحضور. يجهّز الألعاب، يشتري بالونات، الأطباق الورقية، أشرطة الزينة الملونة، شفاطات المشروبات، عصائر، التورتة بلوازمها. الخيوط ومشابك الغسيل اللازمة للعبة صيد السمك. يستدير لينظر من النافذة، لا داعي للقلق، لم يحدث أي شيء، كل ما حدث أن الوالد تأخر بعض الشيء.

في زمن مضى، اعتاد الابن دوماً أن يلتقي شقيقته في محطة الحافلات الرئيسية في ستوكهولم (Cityterminalen)، وحينئذ يكون الأب في

طريقه، يحلو لهما الجلوس خلف الحاجز الزجاجي على الدكك قبالة موقف الحافلات، ظهراً لظهر، رأساً لكتف أو رأساً لفخذ. كان ينظر إلى ساعة المحطة ليتحقَّق من الوقت ويتساءل أين عساه يكون والده، تذهب الأخت إلى متجر برسبيرون وتعود بعصير العليق وساندويتش وكوب سفري من القهوة بالحليب. ينزع سماعات رأسه ويتركها لشقيقته لتسمع تسجيلات جديدة لـ «رويس دا 5'9»، تشينو إكس إل وجاداكيس. الأخت تخلع سماعاته، تتثاءب وتعود لنقاش حول القواعد الصحية السليمة لنظافة الأعضاء التناسلية الأنثوية، وهو حوار كانت قد شرعت فيه مع ثلة من العجائز وهي تنتظر الحافلة الليلية للعودة إلى مدينة فاربيري. الابن الذي لم يكن بعد قد أصبح أباً ينهض من الدكة ويتمشى حتى الواجهة الزجاجية. الأخت التي لم تكن قد أصبحت بعد أماً تتمدّد على الدكة وتستخدم حقيبة اليد خاصتها كوسادة وتخلد للنوم. كل خمس عشرة دقيقة، تأتي حافلة جديدة من المطار. ولا حافلة من كل تلك الحافلات جاءت بالأب. الابن قعد، قام، قعد من جديد. رجل بلا مأوى يوقظه الحراس. اثنان من سائقي سيارات الأجرة يلعبان لعبة (إكس-أو) أو يراهنان على سباق الخيل. حفنة من السائحين الغارقين في دياجير جهلهم بأبجديات المكان والاتجاهات نزلوا مرتبكين من حافلتهم وساروا في اتجاه، وسرعان ما نكصوا على أعقابهم ليتخبطوا في اتجاه آخر. هو نظر بازدراء لشقيقته النائمة. كيف تأتّى لها أن تكون بكل برود الأعصاب هذا وخلو البال هكذا؟ ألا تدرك أن شيئاً ما قد حدث بالتأكيد؟ إن أباهما قد اعتُقل. إن العسكر انتزعوه وهو يصعد لمتن الطائرة، طلبوا جواز سفره، اتهموه بأنه جاسوس، مهرِّب، عضو في جماعة من جماعات المعارضة. في راهن اللحظة، هو في زنزانة عارية، يحاول إقناع طغمة العسكر بأنه لاعلاقة له بذلك السجين الذي أشعل النار في نفسه احتجاجاً على ممارسات النظام. نحن عائلة كبيرة، هو قالها. لا يجمعني بذاك السجين سوى لقب عائلتنا. أنا رجل لا شأن لي بالسياسة، أنا رجل مبيعات، ثم كان له أن يبتسم ابتسامته الساحرة. لو أن بمقدور شخص أن يجد في كلماته سحراً ينتشله من ظلمات الزنزانة، فلن يكون إلَّا هو. اجلس واسترح، قالتها الأخت عندما استيقظت. خذ راحتك. كل شيء على ما يرام.

تسعون دقيقة، قالها الابن، وهو يهزّ رأسه. أمر غريب بحق أن تكون الطائرة قد هبطت منذ تسعين دقيقة وهو لم يصل إلى هنا بعد. استرِح، قالتها الأخت، لتعيده إلى مقعده. الأمر ليس غريباً على الإطلاق. بادئ ذي بدء، هو سينتظر حتى يغادر الجميع الطائرة، ثم يكون له أن يغنم ما تيسَّر من الجرائد المرمية مع زجاجات الخمور المغلقة. ثم يستخدم حمامه الأثير، يلملم أمتعته ويفحص حقيبته. لو أنها تعرضت لأدنى خدش، كما يحدث دائماً، سيدرج اسمه ضمن قائمة المطالبين بتعويضات، أليس ذلك ديدنه؟ الابن نكس رأسه. سيقدم بياناً بالأضرار والتلفيات التي حلّت بحقيبته وطاقم العاملين المختصين لن يعرف إن كان جاداً أم إنه يجنح للهزل، وذلك لأن حقيبة كهذه لم تعد موجودة منذ الحرب العالمية الثانية. سيخبرونه أنهم لا يدفعون تعويضات عن التآكل والاهتراء جرّاء الاستعمال العادي، وسيتلبسه الغضب ويصيح بأن الزبون دائماً على حق. إلا إذا كانت المرأة التي تقف خلف منضدة الاستقبال شابة وجميلة، قالها الابن. تمام، قالتها الأخت. عندئذ سيبتسم ويقول إنه متفهم. وبعد؟ سألها الابن. هو يبتسم الآن. ثم يذهب إلى الجمارك، قالتها الأخت. وثمة مراقب جمارك عديم الخبرة سيظن أنه يخفي شيئاً ما. سيسحبونه إلى ركن ويوجِّهون الأسئلة. سيطلبون منه أن يدخل معهم إلى غرفة خلفية ويريهم محتويات حقيبته. وما الذي سيجدونه؟ لا شيء. حقيبته في حكم الفارغة عملياً. لا شيء أكثر من قميصين وقليل من الطعام. هكذا يطول به الوقت دائماً، قالتها الأخت. وهكذا أنت دائماً تقلق نفسك بلا سبب وتحمّلها ما لا تطيق بلا مبرر.

جلسا صامتين. وصلت حافلة وأخرى هلَّت. عندما تحركت مبتعدة، كان بابا على الرصيف. دائماً يرتدي الملابس ذاتها. السترة الرثّة ذاتها. الحذاء البالي ذاته. الحقيبة ذاتها والابتسامة ذاتها ودائماً السؤال الأول ذاته: هل معطفي معكم؟ الابنة والابن يجتازان الأبواب المزدوجة. يساعدانه في ارتداء معطفه ويأخذان حقيبته. هما قالا له عوداً حميداً لوطنك، والسؤال يتردد كل مرة إذا ما كانت كلمة الوطن هي حقاً الكلمة الصحيحة.

***

الأب الذي هو جد يهلّ على صالة الوصول. يجابه أعين المنتظرين.

وجوههم مربدة، للجميع وجوه مشوشة على كاميرات المراقبة مثل وجوه المجرمين. صبايا يشربن الشاي «التيك أواي» في أكواب ورقية. رجال ملتحون في بناطيل ضيقة للغاية، يفحصون هواتفهم المحمولة. أب وأم مهندمان يحملان لافتة مطوية، واحد من الأقـارب يصورهما بكاميرا ذراعها قائمة ككوبرا. رجالٌ عدّة يمسكون باقات ورد ومعاطف لا حاجة لهم بها. الأب يعرف هذا النوع من الرجال. قُدِّر له أن يراهم من قبل. رجال سويديون، ينتظرون عرائسهم التايلانديات. هم التقوا على شبكة الإنترنت وارتبطوا بعلاقات زواج قبل أن يرى الواحد منهم عروسه أبداً وجهاً لوجه، والرجال جاؤوا بالمعاطف للمطار لإظهار أنهم طيبون وليجنبوا الفتيات صدمة البرد. لكن الرجال الطيبين ليسوا بحاجة لطلب زوجات عاهرات من الجانب الآخر للعالم، هكذا يتصوّر، وهو يسير نحو باب الخروج. لا يحاول أن يجد ابنته وابنه، لأنه يعرف أنهما ليسا هنا. مع ذلك، هو يشعر بنظرته المحدقة تبحث بين الوجوه. عيناه تترقبان. يرى أسرة إفريقية كبيرة، الرجال أشبه بتجار المخدرات. يرى شاباً باكستانياً بشامة تحت إحدى عينيه، يرمش بلا توقف كما لو أنه مهتاج أو استيقظ لتوه. أغلب الظن أنه واحدٌ من هؤلاء المثليين. بوسع المرء أن يستشف ذلك من قميصه الضيق ووشاحه المنفوش. الجد يمضي قدماً، متجاوزاً المقهى المفتوح على مدار الساعة، يتجاوز سائقي سيارات الأجرة التي تحمل لافتاتها ألقاباً سويدية أو أسماء شركات إنجليزية. يتجاوز مكتب الصرافة الذي يغلق أبوابه ليلاً وذلك العمود المستدير بتلك الملصقات الخضراء الكبيرة التي تعلمه بوجود جهاز إزالة رجفان القلب هنا. ما هو جهاز تنظيم ضربات القلب هذا بحق الجحيم؟ لو أنه كان بكل هذه الأهمية، لماذا لا يضعون تلك الأجهزة في كل المطارات؟ لا. هذا الجهاز هنا فحسب، في هذا البلد الغريب، الذي يقرّر فيه الساسة أن صالة وصول المسافرين لن تكون آمنة من دون جهاز تنظيم ضربات القلب.

الجد الذي لم يعد يشعر بأنه أب يدفع عربته «الترولي» باتجاه موقف الحافلات. يخرج للعاصفة. طوال حياته وهو يسافر من هذا المطار ويعود إليه. شمس، مطر، شتاء، صيف. لا فرق. الرياح من خارج المحطة رقم 5

مستمرة ببأس شديد. إنها تبدو كإعصار، لتتحدى بجبروتها توقعات حالة الطقس. إنها تقلب الأوشحة إلى أعلام. السترات إلى تنانير. إنها قوية للغاية حتى إن الناس الذين ينتظرون الباصات عليهم أن يتخذوا ملاذات بين الأعمدة الخرسانية ليحتموا بها إن أرادوا تجنب تقديم وصلة رقص لاإرادية، خطوتان لليمين، خطوة واحدة للأمام، بينما تضحك الرياح وتصفِّر بإيقاع منتظم.

ينظر بعينين نصف مغمضتين إلى الشاشة الإلكترونية. أربع عشرة دقيقة حتى تصل الحافلة القادمة. لا بدَّ وأنها غادرت لتوها. أربع عشرة دقيقة لعينة. زوجته تختلس النظر من وراء ركن قصي. 14 دقيقة! هي تهتف بصوت مبتهج. يا لها من نعمة وعليك أن تحمد ربك أنها ليست 114 دقيقة! البرد قارس، هو يغمغم. منعش، تقولها هي. لم يأت أحد ليستقبلني، يقول هو. أنا هنا، ترد عليه. يقول أنا مريض. ليست إلا نعمة في طي نقمة لأنك مريض بالسكر لا مرض عضال آخر من الأمراض المزمنة، تجيبه، لأن السكر يسهل رصد تطوراته والسيطرة عليه، أنا سمعت عن مصابين بالسكر كان بمقدورهم التوقف عن العلاج بالأنسولين بمجرد تغيير نظامهم الغذائي، وأنت توافقني الرأي بالتأكيد بأنه ليس لطيفاً الاستمرار بالإبر والحاجة إلى قياس مستويات السكر في الدم، أليس كذلك؟ إنني أصاب بالعمى، هكذا يتحدث. تسأله لكن ألا تستطيع أن تراني؟. نعم، هو يقولها. يا لها من نعمة، تقولها مع ابتسامة. شعرها القصير يرفرف في الريح. نعمة في طي نقمة. ذاك قولها المأثور وتعويذتها الأثيرة. مهما كان ما حدث. عندما انكسرت ذراع زميل ابنتها في المدرسة، كان السؤال الأول لزوجته: الذراع اليمنى أم اليسرى؟ اليسرى، قالت الابنة. فردت الزوجة يا لها من نعمة في طي نقمة. هو أعسر، قالت الابنة لأمها. إذن لديه فرصة لرفع كفاءة يده اليمنى، الزوجة قالتها. نعمة في طي نقمة. الأب يبتسم لتلك الذكريات التي تدفقت من ذاكرته. الرياح تتراجع. كل شيء يسكن صامتاً. الزوجة تدنو، تمسّد صدغه وتقبِّل خده بشفتين باردتين كأزرار المصعد. بالمناسبة... تهمس. زوجة؟ لماذا لا تزال تعتبرني زوجتك؟ نحن انفصلنا بطلاق منذ أكثر من عشرين عاماً. الرياح تعود. هي تتلاشى. جسده واهن. ثمة مشكلة في عينيه. كل

ما يريده أن يذهب إلى بيت. ليس لديه بيت. ها هنا سيارات تاكسي. هاهنا القطار السريع. لكنه سينتظر الحافلة. هو دوماً ينتظر الحافلة.

***

الأخت التي هي ابنة لكنها لم تعد بعد أماً تغادر المطعم، توقف سيارة أجرة وتقول عنوان وجهتها. أمسية طيبة؟ سائق التاكسي يتساءل. لا بأس، تقولها الأخت. كنا نحتفل هناك بعيد ميلاد صديقة. أكملت الثامنة والثلاثين. ثمانٍ وثلاثون سنة، يا للهول. الأخت تتنهد. الوقت يطير بالسنين على أجنحته، يقولها السائق. هذا صحيح، هي ترد. هل لديك أطفال؟ سائق التاكسي يسأل. ثمانية وثلاثون عاماً، هي تردِّد. أنا أتذكر عندما بلغت ماما الخامسة والثلاثين. وضعت كل أوراق عملها في ملفات. شرعت في عملها الخاص. بدت في غاية الرشد والنضج ومرتبة تماماً وتضع كل شيء في موضعه الصحيح. أصدقائي يتضاجعون بلا تمييز يعملون بعقود عمل مؤقتة. لكن لعلها أيضاً كانت تنظر بمنظوري هذا لأصدقائها، عندما تقارنهم بوالديها، أو ما رأيك؟ ممكن جداً، يقولها سائق التاكسي. صمت. على أي حال، الطعام كان جيداً، هي تقول. هل سبق لك وأن أكلت هناك؟ أجابها: لا. قالت: فعلاً وجبات كافية، من أبغض الأشياء عندي هو أن تذهب إلى مطعم ما وتدفع ثلاثمائة لطبق رئيسي لا يشبعك حتى. شيء يغيظ فعلاً، أليس كذلك؟ هو كذلك، يقول السائق. الواحد يريد أن يشبع تماماً. أجابته: بالضبط، ومع ذلك هناك عيب في نظام التهوية، المكان بأكمله مخنوق بزنخ الطبيخ. الرائحة كانت نفّاذة للغاية حتى إنها دفعتني للخروج طلباً لشيء من الهواء النقي حتى لا أتقيأ. سائق التاكسي يلتقي عينيها في مرآة الرؤية الخلفية. صمت. تخرج هاتفها. الرسالة الأولى جاءت في الثامنة والنصف. أخوها يخبرها أنه في غرفة المكتب، في انتظار بابا. تباً، طبعاً. هل كان اليوم موعد عودة بابا؟ رسالة جديدة، في التاسعة وخمس عشرة دقيقة. يكتب أن والدهما لم يصل بعد. التاسعة والنصف. يقول إنه بدأ يشعر بالقلق. العاشرة وخمس عشرة دقيقة. رسالته نصها أن الطائرة تأخرت وأنه بصدد العودة إلى المنزل في الحال. يطلب منها أن تتصل به. هي تنظر إلى الساعة. إنها الحادية عشرة والنصف. على الأرجح سيكون نائماً الآن. يمكن أن يتحدثا غداً. لا

شيء يثير ضيقها الآن سوى أن سائق التاكسي قد أفرط كما يبدو في استخدام كولونيا ما بعد الحلاقة. وأنه أياً كان من جلس قبلها في المقعد الخلفي فلا بدّ وأنه مدخِّن شره لم يكف عن التدخين طوال وجوده في هذا المقعد. المناديل المبللة المكومة في لفافة نصف مغلقة محشورة في منفضة السجائر بباب السيارة تفوح برائحة أقرب لرائحة المشمش المجفف صناعياً، لتبغ السنوس الذي يستخدمه السائق رائحة الطحالب فيما العربة تخرج من النفق، اضطرت لفتح النافذة ثم تدفع أنفها صوب الفتحة. الجو حار جداً؟ السائق يتساءل. بعض الشيء، هي تقول. هو يغلق النافذة من مقعده الأمامي ويشغِّل مكيِّف الهواء. بمقدورها أن تسمع شهيقها. فمها يمتلئ باللعاب. الآن أفضل جداً، تقولها بمجرد أنْ خرج التاكسي من الدوار. تمسك بطاقتها المصرفية وتنساب خارجة من مقعدها الخلفي. تمكث خمس دقائق مفترشة الأرض بجوار مشتل زهور، ثم تبدأ في السير نحو المنزل. إنها لم تتقيأ. لن تتقيأ. لكن شيئاً ما ليس على ما يرام. شعرت كما لو أنها بطل خارق يمكنه أن يستخدم قدراته الجيدة لإحصاء كل رائحة على مسافة عدة بلوكات سكنية، الأمر الذي جعلها تشعر بغثيان مريع جرَّاء ذلك. الرائحة الكريهة للنقانق قبالة مطعم إيلفين 7. فضلات الكلاب عند موقف الحافلات. رجل تفوح منه رائحة كريم الوجه. شارعها يهبّ برائحة كأوراق الخريف الرطبة. تنعطف يميناً وتقارب بابها. وقع أقدام خلفها. الخطى تتسارع. هذا لا يعني بالضرورة أي شيء. واحد ممن يجرون ليلاً؟ جارها المولع بموسيقا الروك، الذي رآها تجلس القرفصاء ويريد أن يسأل إن كانت بحاجة لأي مساعدة؟ رغم كل ما تعاني منه، تُخرج سلسلة مفاتيحها وتأخذ أهبتها. المفاتيح تتحول إلى براجم من حديد. عيناها في تركيز. الغثيان يتبدد. لا تهابي. لا تهابي. فلتأخذي المبادرة. أطلقي صيحاتك. لا تسمحي أبداً للمهاجم بأن يرى خوفك. هي تستنفر قوتها، تستدير وتتجه رأساً نحو الرجل الذي يتعقبها. ماذا تريد؟ تصيح. ينزع الرجل سماعة من أذنه. معذرة، ماذا تقولين؟ فلتكف عن ملاحقتي، هي تقول. أنا أقيم هنا، هو يقول، مشيراً. تسأله: في أي رقم؟ 21، هو يقول. لا يوجد 21 هنا، أوه، بلى يوجد، هو يقول. لأنني أسكن هناك. أي شارع؟ هو يقول اسم الشارع. أوكي، هي تقول. اذهب. هو يهرول

ماضياً بعينين وجلتين ورأس يرتجف. رائحته كرائحة الفشار بالزبدة. عيناها تتابعانه. فور أن يتناءى بسرعة مختفياً، هي تقعي مرة أخرى. مطعم حقير كالزفت. سيارة أجرة معفنة مثل الزفت. أوراق شجر مقززة «زي الزفت». هي تأخذ المصعد وبالكاد تتمكن من الوصول إلى الحمام لتستفرغ. حبيبتي الجميلة؟ الرجل الذي ليس حبيبها يهمس من الجانب الآخر لباب الحمام. هل هناك أي شيء يمكنني أن أفعله؟ هي لا تجيب. على جنبها راقدة في الحمام حتى يهدأ العالم.

هناك خطافات المناشف بلا منشفته. هناك حامل فرشاة الأسنان بلا فرشاة أسنانه. هناك ستارة حوض الاستحمام المنقوشة بالببغاوات الأرجوانية، التي وضعتها لأن الحمام يتحوّل إلى غابة استوائية مطيرة في كل مرة يستحم هو فيها، عليها أيضاً أن تغيِّر لفافة ورق التواليت. كيف لمنغصات قليلة أن تثير غضبها؟ هناك خزانة الحمام التي استحوذ على رفها السفلي، التي يستطيع الوصول إليها من دون الصعود على الكرسي الستول الأبيض. كان يحتفظ بمزيل العرق وشفرات الحلاقة التي تُستعمل لمرة واحدة ولم يعد بحاجة لها في هذا الرف، مع تشكيلة من الكريمات المرطبة التي تأتي بها من الفنادق عندما تكون في سفريات عمل. الآن الرف السفلي في خزانة الحمام خالٍ، وعندما يضع الرجل الذي يظن أنه حبيبها ماكينة الحلاقة دون استئذان، ترد هي برميها في صندوق الزبالة.

عندما تخرج من الحمام، الرجل الذي ليس بحبيبها يعبث بهاتفه على الأريكة. شربتِ أكثر من اللازم؟ متكلفاً هو يقولها بابتسامة صفراء. لا أبداً، هي تقول. طوال المساء لم أشرب إلا المياه الغازية. لم أشعر برغبة في احتساء النبيذ. هو يضع هاتفه. ماذا؟ هي تقول. لماذا تبدو بكل هذا القلق؟

***

يتحقق الابن الأب من الوقت. الليل يكاد ينتصف. شقيقته لم تتصل به. صديقته بعثت رسالة قصيرة منذ ساعة. وردّ عليها بأن الطائرة تأخرت وكان في طريق عودته إلى البيت. تأهب للخروج. لكنه لم يخرج. لا يعرف لماذا. يحاول أن يتصل بالرقم الأجنبي لأبيه. ثم على الرقم السويدي.

كلاهما مغلقان، أو البطارية نفدت، أو الهاتف صودر. يرهف أذنه لعله يسمع المفتاح في القفل. يفتكر عندما كفا عن الذهاب لاصطحاب والدهما من محطة الباص. هل كان ذاك منذ ثلاثة أعوام؟ خمسة؟ ليس بمقدوره أن يتذكر تماماً، غير أن خاطراً يرنو إلى ذهنه ليخمن بأن ذلك كان على وجه التقريب في الوقت عينه الذي أصبح فيه أباً وأبوه أصبح جدّاً. ثمة شيء حدث آنئذ، على الرغم من أن الابن لا يزال مسؤولاً عن المسائل العملية. إنه يتابع بدقة الحساب المصرفي لوالده والبريد الوارد له. يدفع الفواتير، يستوفي الإقرارات الضريبية لأبيه، يفسخ ارتباطات ويفتح خطابات من وكالة الضمان الاجتماعي. هو أيضاً مسؤول عن تدبير مكان ما للوالد ليقيم فيه متى جاء في زيارة. بصرف النظر عما إذا كان وجوده هنا لعشرة أيام أو أربعة أسابيع. هكذا يكون الحال دائماً. هكذا سيكون.

الابن يأخذ كوب شايه إلى المطبخ. عندما يشعل النور، يسمع أصوات طقطقة من الصراصير التي اختبأت خلف الفرن. من زاوية إحدى عينيه، يرى ظلال صرصارين يختفيان وراء الفريزر. على مغسلة المطبخ صرصار أحمر زاهٍ لا يزال يربض صامداً، يحاول التخفي، قرون استشعاره تتذبذب في الهواء. الابن يضع كوب الشاي على سطح الموقد وبروية تمتد يده ليظفر بقطعة من لفافة الورق في المطبخ. يبلل الورقة، يقتل الصرصار، يمسح أثره ثم يلقي قطعة الورق مباشرة داخل المرحاض، لتجنب أي انتشار لمزيد من بيض الصراصير. الفخاخ الورقية المعلقة زرقاء اللون التي تفننت في صنعها شركة أنتيسيمكس لمكافحة الآفات ما تزال في مكانها منذ أسابيع عدة. الرجل الذي يأتي بالسم كان هنا يوم الخميس الماضي، ليرش خطوطاً جديدة من معجون مبيد أشبه بمعجون الأسنان بين الفرن وحوض المغسلة، بين البراد والفريزر. ومع ذلك لم تتوقف الصراصير عن المجيء. هناك نوعان، نوع أكثر سواداً بعض الشيء، الآخر أكثر احمراراً بعض الشيء، لكن عندما يأكلون السم ويهلكون، يتصرفون بالطريقة ذاتها. ينبطحون على ظهورهم وأرجلهم مطوية، قرون استشعارهم الطويلة تتماوج جيئة وذهاباً كحواف أوراق العشب. تلك الصراصير تبدو متناغمة للغاية وهي ترقد رقدتها الأخيرة، متجهزة للمحو بقطعة ورق مبلّلة من لفافة المطبخ. هو

يستخدم دوماً ورقة لكل صرصار. بهذه الطريقة لفافة الورق تبقى مدة أطول. لو تصادف وأخذ قطعتين من الورق، يكون عليه أن يقتل صرصارين، ذلك أكثر عدلاً للجميع ويعني أنه لن يكون عليه أن يبذِّر المال في شراء لفافات ورق المطبخ طوال الوقت. هذا لم يكن صوته، إنما كان صوت والده. استخدِمْ منديلاً واحداً في كل مرة تقضي حاجتك، هكذا اعتاد دائماً أن يصيح من الجانب الآخر للباب عندما يكون الابن جالساً على المرحاض. استخدم منديلان إن كنت تريد تبليلهما بالماء. يجيب الابن: لقد بللتهما. إذاً يمكنك أن تأخذ قطعتين، قال الأب. الابن أخذ قطعتين مربعتين، بلّلهما ومسح. الآن قطعة أخرى لتتأكد من أنك نظيف، الأب أصدر أمراً. لاعليك حتى لو استخدمت اللفافة كلها، صاحت الأم من المطبخ. لا تسمع لها، قالها الأب. فعل الابن كما قيل له. طوال حياته النكدة، هو يفعل ما يُقال له. حان الوقت لتغيير ذلك، فكر الابن بذلك وأحضر قلماً. لم يكتب أن تلك ستكون هي المرة الأخيرة التي يقيم فيها والده هنا. وأنه يريد فسخ الرابط بينه وبين أبيه.

بدلاً من ذلك، هو يكتب: أهلاً، بابا. أتمنى أن تكون قد حظيت برحلة سعيدة. هاهنا الرسائل التي وصلتك. اسمح لي أن أعرف بأنك وصلت بالسلامة متى تيسّر لك ذلك، حتى لا أشعر بالقلق بأن شيئاً ما قد حدث.

يطفئ الابن الأنوار متأهباً للخروج نحو الدرج. يغلق الباب الداخلي، الباب الخارجي وقفل الأمان. بعد ذلك، من باب الاحتياط وحتى يطمئن قلبه فحسب، يتأكد من أنه أغلق قفل الأمان. يغادر البناية ويبدأ مسيرة العودة إلى البيت. لكنه ينكص مرتداً ليتحقق مجدداً من أنه لم ينس إغلاق قفل الأمان عندما كان يتأكد من أنه أغلق قفل الأمان. يمرّ بالساحة حيث الحانة يجري تجديدها. يمرّ بمحل المأكولات في الزاوية، الذي يديره ذلك الرجل العجوز اللطيف المضطرب فيما بدا أنه ينام في المحل وأنه أغلق منذ وقت. يمرّ بلافتات برّاقة تعلن عن المساج التايلاندي في مراكز هالسان وصالونات K & N للحلاقة، المبولة التي تشبه البرج الأخضر ولوحة الإعلانات المكتظة بنسخ مصورة على ورق مقاس A4 تعلن عن منزه للكلاب (مكرس لحب الكلاب منذ عام 1957!)، إعلانات عن وقفات احتجاجية لحركات

نسوية، تصليح دراجات هوائية ودروس في رياضة الزومبا للياقة البدنية. يمرّ بمحطة المترو، كافيه الإسبريسو الذي أغلق أبوابه، مغسلة التنظيف الجاف التي أغلقت أبوابها. هو على وشك أن يشرف على المكان الذي اعتاد الشحاذ على الجلوس فيه، لكنه شاغر، لا شيء سوى بعض البطانيات، وعاء فارغ وقطعة من ورق مقوى مع صورة لأبناء الشحاذ. الابن ينعطف يساراً نحو طريق المشاة المفروش بالحصى والذي رُصِف مؤخراً، يتخطى ملعب كرة القدم الكبير المغطى بالعشب الصناعي، الغرفة الحمراء لتغيير الملابس ومجموعة الأشجار التي اقتلعتها الرياح وضيقت الطريق بدون أن يقوم أحد بسحبها بعيداً. يمرّ بمناطق الفيلات وبالدوارات وبمناطق أعمال البناء.هل التقيته؟ تهمهم حبيبته بينما كان يندسّ في الفراش إلى جوارها، ليس اليوم، هو يهمس.